تقرير

شوقي عشقوتي
lionbars@hotmail.com

الشرق الأوسط بعد حرب غزّة: تداعيات إستراتيجيّة ونظام إقليمي جديد

اذا كانت حرب اوكرانيا ادت الى زعزعة قواعد واسس النظام العالمي وتدفع الى قيام نظام جديد متعدد القطب بعد الاطاحة باحادية الزعامة الاميركية، فان حرب غزة ستؤدي حكما الى زعزعة اسس النظام الاقليمي، والى تغيير وجه المنطقة. شرق اوسط جديد بمعادلات ووجوه جديدة على وشك ان يولد من تحت انقاض غزة ومن رحم المعاناة الفلسطينية

كثيرة وكبيرة هي النتائج والتداعيات التي انبثقت من حرب غزة وترتبت عليها:

1- اصيبت اسرائيل في صميمها وتلقت الضربة الموجعة الاكثر ايلاما منذ قيامها عام 1948. الدولة المفتعلة في الشرق الاوسط قامت منذ تأسيسها على مبدأي القوة والامن، وجاءت عملية حماس، (طوفان الاقصى)، لتضربها في امنها وقوتها، وتضرب صورة وهيبة جيشها الذي لا يقهر، وثقة الاسرائيليين بدولتهم وجيشهم ومستقبلهم. وبالتالي وجدت اسرائيل نفسها، وللمرة الاولى، امام حرب وجود لا حرب حدود، وتخوض معركة حياة او موت. لذلك انطلقت في حرب مجنونة تبحث عن تأمين امنها لعقود قادمة، معلنة انها لن تقبل بعودة الوضع في غزة الى ما كان عليه قبل 7 تشرين الاول (اكتوبر)، وانها لن تقبل باستمرار الوضع الذي كان قائما قبل هذا التاريخ، لا في جنوب فلسطين ولا في جنوب لبنان. ولكن اسرائيل، وفي لحظة هستيرية فقدت فيها صوابها وتوازنها، رفعت عاليا سقف اهدافها من الحرب، وهي اهداف غير واقعية وتعجيزية، عندما تعلن انها تريد محو حماس من الوجود والقضاء عليها، او عندما تخطط لتفريغ قطاع غزة من سكانه وتهجيرهم الى سيناء المصرية عبر رفح.

2- دخلت حركة حماس التاريخ من بابه الواسع عندما نفذت عملية عسكرية غير مسبوقة تفوق التصور والخيال، وحققت نجاحا باهرا وردت الاعتبار الى القضية الفلسطينية وخيار المقاومة، وهشمت مشاريع السلام والتطبيع، واعادت تأجيج الصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي وثبتته كصراع مركزي في منطقة الشرق الاوسط. لكن حماس تواجه تحدي البقاء، ليس في غزة فقط وانما في المعادلة الفلسطينية. ورغم ان شعبيتها قويت وازدادت في صفوف الشعب الفلسطيني، الا انها محاصرة بوضع بالغ الصعوبة ومن كل الجهات: هناك اولا قرار

اميركي ـ اسرائيلي بانهاء حماس وبالوصول بعد الحرب الى غزة من دون حماس. وهناك ما يشبه التفاهم الضمني او التواطؤ بين الولايات المتحدة والدول الغربية على احتواء حماس والتخلص من تأثيرها على القرار الفلسطيني وتحكمها به من الان فصاعدا، ومن دورها السياسي في مستقبل المفاوضات والتسويات، وبحجة انها ضد وجود اسرائيل وحل الدولتين.

لكن المشكلة ان السلطة الفلسطينية لا تشكل بديلا مقنعا من حماس. وحتى لو اعطيت مهمة تسلم ادارة قطاع غزة، فانها ليست مؤهلة لهذا الدور وغير قادرة عليه، حتى انها لم تعد قادرة على ادارة الضفة الغربية والسيطرة على اوضاعها، بعدما اكلت حماس الارض وتغلغلت في شعبها وبناها التحتية.

ان الوضع الفلسطيني صار امام ضرورة وحتمية حدوث تغيير فيه، وتحديدا امام واحد من تغييرين: اما ان تتغير السلطة الفلسطينية قيادة وتركيبة واداء، ويتم الانتقال الى قيادة شابة نشطة قادرة على التكيف مع متطلبات المرحلة الجديدة، مع اعادة نظر جذرية في طريقة ادارتها للوضع الفلسطيني وفي اليات علاقاتها مع اسرائيل. واما ان تتغير حماس في سياستها ومقاربتها للصراع مع اسرائيل، وفي اتجاه الانخراط في المشاريع والتسويات السياسية، والتحلي بالبراغماتية والواقعية وتغليبهما على العقيدة والايديولوجيا الدينية. وبما ان الجناح العسكري لـحماس لن يعود ممكنا استمراره بعد حرب غزة، فان الجناح السياسي هو الذي يبقى لها طالما انها تمثل شريحة اساسية من الشعب الفلسطيني ودخلت في نبضه ووجدانه الجماعي.

3- عودة قضية فلسطين التي اهملها العرب والعالم ودخلت في غياهب النسيان، وعادت الان الى الواجهة الامامية للملفات الساخنة على المستوى الدولي، لتثبت مركزيتها وتفوقها على كل القضايا والحروب والملفات الساخنة في المنطقة والعالم، من حروب ليبيا والسودان واليمن، الى حرب اوكرانيا والحرب الاقتصادية بين اميركا والصين.

رسخت حرب غزة قناعة دولية بانه طالما القضية الفلسطينية لم تجد حلا ستظل خطرا ومصدر تهديد اول للامن والاستقرار العالميين. ورسخت حرب غزة قناعة اقليمية بانه طالما الصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي قائم ومستمر، لا مكان ولا امكانية لتطبيع وسلام مع اسرائيل. فقد اوقفت حرب غزة وجمدت، وربما الغت، مسار التطبيع الذي كان يتقدم بثبات بين اسرائيل والدول العربية والخليجية خصوصا، وكان اقترب من نقطة الذروة مع اقتراب التوقيع على اتفاق بين السعودية واسرائيل مواز للاتفاق بين السعودية وايران. استطرادا، ان حرب غزة اسقطت الفكرة والحسابات الاسرائيلية التي كانت تقول ان الاتفاقات الثنائية مع العرب، اتفاقات التطبيع والسلام الاقتصادي، تغنيها عن اتفاق مع الفلسطينيين، وان انهاء الصراع العربي ـ الاسرائيلي اذا حصل كفيل بان يضع حدا للصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي ويلغيه. فيما كانت حسابات دول الخليج ان الاقتصاد والازدهار هو الهدف وهو المحرك للاتفاقات مع اسرائيل، ولا يمكن ولا يجب ان ننتظر حل القضية الفلسطينية.

القضية الفلسطينية عادت القضية المركزية في المنطقة والصراع مع اسرائيل عاد الى الخطوط الامامية

4- الحرب اعادت الصراع مع اسرائيل الى الواجهة والى الخطوط الامامية للجبهة الشرق اوسطية التي لا تهدأ. والنتيجة كانت ان مشاعر العداء والكراهية ضد اسرائيل تعاظمت في العالمين العربي والاسلامي، ان الصراع مع اسرائيل عاد يتصدر ويتقدم على الصراع مع ايران.

فمنذ العام 2003، عندما قدمت الولايات المتحدة الى المنطقة عبر بوابة العراق الذي اجتاحته وحكمته، بدأ المشروع الايراني يظهر ويتمدد في المنطقة العربية تحت غطاء اميركي، او على الاقل بغض طرف اميركي، وصار العداء العربي لايران متقدما على العداء لاسرائيل، لا بل ظهرت توجهات لدى دول عربية الى اقامة تعاون وتنسيق امني وسياسي واقتصادي في مواجهة المد الايراني.

الان، وبعد حرب غزة، انقلب المشهد الاقليمي وعادت اسرائيل العدو رقم واحد بالنسبة للشعوب العربية اذا وضعنا الانظمة جانبا. ولم تكن مشاركة ايران في قمة الرياض العربية الاسلامية الا مؤشرا الى التحول الحاصل، والى ◄

◄ طبيعة المرحلة المقبلة، ونموذجا عن علاقاتها السياسية الجديدة.

5- ابرزت الحرب دورا مميزا لكل من مصر وقطر، ولكنها كرست دورا اقليميا متعاظما لكل من السعودية وايران. فالسعودية كانت مركز الاتصالات والمشاورات، واستضافت قمة عربية اسلامية جامعة، وقادت حملة اتصالات ومبادرات دولية سياسية وانسانية، مما يعزز الاعتقاد ان السعودية ليست قوة اقتصادية ومالية فقط، وانما صارت قوة سياسية ودبلوماسية، وان الدور السعودي سيكون اساسيا في صياغة التسويات السياسية في المنطقة، وفي كل الملفات تقريبا (الفلسطيني واللبناني والسوري والسوداني، وبالطبع في المقدمة الملف اليمني).

اما ايران، فانها تترسخ اكثر فاكثر قوة اقليمية اولى وتقود محورا مترامي الاطراف، ممتدا من بغداد وصنعاء الى دمشق وبيروت. هذا المحور، حتى لو سلمنا جدلا انه سيخسر غزة وحماس، فان ما سيخسره فلسطينيا يعوضه عربيا واسلاميا، بعدما تصالحت ايران مع العرب عبر اتفاقها مع السعودية، وبعدما عملت على احتواء الصراع السني ـ الشيعي في المنطقة واضعافه، مقابل توحيد الموقف الاسلامي ضد اسرائيل.

6- نجحت روسيا، رغم انهماكها في الحرب الاوكرانية، ورغم جسامة الاحداث والحرب التي داهمتها في غزة، في التدخل والتاثير على الاحداث، انطلاقا من هدف اساسي هو حفظ مصالحها ودورها في المنطقة. وحققت في هذا الاطار عدة نتائج، اولها تحييد سوريا كدولة وجيش عن الحرب الدائرة في غزة، وعدم فتح جبهة الجولان على غرار جبهة جنوب لبنان. وبدا واضحا ان سوريا لا تؤيد استخدام الاراضي السورية منطلقا لهجمات ضد اسرائيل، والسبب الاول يكمن في ان الوضع فيها دقيق وصعب ولا يحتمل حربا ومزيدا من النزف والفوضى. كما عززت موسكو علاقتها مع حركة حماس بعدما كانت تركز على العلاقة مع السلطة الفلسطينية. وهذا ما يعطيها دورا وحيزا اوسع في الملف الفلسطيني نتيجة التأزم والانقطاع بين المجتمع الدولي وحماس من جهة، ونتيجة التازم والانقطاع بين ايران والسلطة الفلسطينية

ايران والسعودية قوتان اقليميتان ومحور الاتصالات ومشاريع التسويات

من جهة ثانية، ونتيجة التحسن الحاصل في العلاقات الروسية مع دول الخليج والتنسيق في شان مبادرات وتسويات من جهة ثالثة.

7- عودة الولايات المتحدة الى مسرح الشرق الاوسط وقسرا، بعدما كانت غادرته طوعا وعلى مرحلتين: من العراق اولا بدءا من العام 2011، حيث اخلت الساحة لايران، ومن افغانستان، حيث اخلت الساحة لـحركة طالبان.

اما العودة الاميركية الاضطرارية، وعلى عجل، الى المنطقة، فانها تحققت سياسيا وعسكريا تحت تأثير تطورين: الاول سياسي يتعلق بالاختراق الصيني عبر الاتفاق السعودي ـ الايراني الذي اعلن من بكين. والثاني عسكري تمثل في انفجار الحرب الضارية بين اسرائيل وحماس، واضطرار واشنطن للتدخل بشكل سريع وقوي لنجدة اسرائيل، ولاحتواء الحرب والحؤول دون اتساعها ودون نجاح اسرائيل في جر واشنطن الى حرب مع طهران. وتتحرك ادارة الرئيس بايدن على خطين متوازيين ومتكاملين: خط دعم اسرائيل عسكريا وماليا لتعزيز قدراتها وتفوقها وتمكينها من تحمل وتجاوز خسائر واعباء الحرب، وخط قيادة اتصالات سياسية استيعابية تحت عنوان ايجاد حل للصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي.

تدور نقاشات واسعة وحادة داخل الدوائر والاروقة الاميركية حول مسار الحرب واليوم التالي، وحول مصير حماس وغزة وما سيؤول اليه الصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي ومستقبل المنطقة.

تريد الولايات المتحدة رؤية حل عادل للصراع الفلسطيني - الاسرائيلي بمجرد انتهاء الحرب، وتحقيق التطلعات المشروعة للفلسطينيين لاقامة دولة فلسطينية. والالتزام بحل الدولتين يعني القضاء على اي فرصة لحماس للظهور مرة اخرى، وقطع الطريق امام حركات اخرى متطرفة. وتشعر الادارة الاميركية بقلق متزايد من خطط اسرائيل في ما يتعلق بمرحلة ما بعد حماس في غزة، فاعلنت اللاءات الخمس: لا للتهجير القسري للفلسطينيين من غزة، لا لاستخدام غزة كمنصة للارهاب، لا لاعادة احتلال غزة بعد انتهاء الصراع، لا لحصار غزة، لا لتقليص اراضي غزة. بالاضافة الى ثلاث ضرورات:

نقاشات اميركية واسعة حول اليوم التالي ومستقبل قطاع غزة

الطريق الى السلام يجب ان يشمل اصوات الشعب الفلسطيني ويجب ان يشمل حكما بقيادة فلسطينية وقطاع غزة موحد مع الضفة الغربية. ويجب ان يؤدي الى عيش الاسرائيليين والفلسطينيين جنبا الى جنب في دولهم الخاصة، مع التمتع بمعايير متساوية من الامن والحرية والفرص والكرامة.

الحديث في واشنطن جار ان هناك اختلافا بين الرئيس جو بايدن ورئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو حول هدف طويل الامد ومستقبل المنطقة، وتتباين هذه الاهداف والمصالح في النزاع القائم في الشرق الاوسط. كما تنظر اسرائيل لحماس بانها تهديد وجودي وتريد ان تقضي عليها، واي شيء غير ذلك، سيكون بالنسبة اليها فشلا. وقد التزمت الولايات المتحدة مساعدة اسرائيل على هزيمة حماس، الا ان الرئيس بايدن يذهب بتهديداته ابعد من حماس، وتريد ادارته ان تجعل حلفاءها موحدين ضد ايران وروسيا والصين، وهو ما تهدده هذه الحرب. واشنطن تريد تجنب حرب اقليمية، لكن اسرائيل مستعدة لاتخاذ مخاطر في سبيل هزيمة حماس.

يتحدث محللون اسرائيليون عن خلاف عميق بين نتنياهو وبايدن حول اقامة الدولة الفلسطينية، وان هناك تصادما ايديولوجيا مباشرا بينهما حول هذا الشأن. فبايدن يعتبر ابعاد حماس من غزة فرصة تاريخية لبعث حلم الدولتين، ويرى فيها خطوة اولى لتحقيق اعادة السلطة الفلسطينية مجددا للحكم في غزة. في حين يرى نتنياهو ان الهدف الثالث للحرب، اضافة الى ابعاد حماس واعادة المخطوفين، هو منع اعادة السلطة للحكم في غزة، اي احباط سياسة بايدن المعلنة لليوم التالي. ويلفت الى ان لنتنياهو مصلحة واضحة في مواصلة الحرب، الى ان يقضي الرئيس السابق دونالد ترامب بايدن من البيت الابيض من اجله، فهذا سيساعده على تحقيق لاءاته الثلاث: لا لتحمل المسؤولية، لا للانتخابات ولا لدولة فلسطينية. ويعتقد نتنياهو ان بايدن هو الرئيس الاميركي الاخير ـ بعد كارتر وكلينتون واوباما ـ الذي سيعمل على الضغط على اسرائيل من اجل الموافقة على حل الدولتين.

وفي سياق آخر، يرى مصدر دبلوماسي عربي ان هناك مراجعة خفيفة واعادة تداول لمنطق ومنهج السلام مع اسرائيل. بعد 7 تشرين الاول/ اكتوبر الماضي اكتشف الجميع (مصر، الاردن، مجموعة السلام الابراهيمي، من كان يأمل تحقيق حل الدولتين) 3 حقائق مؤلمة استراتيجيا، مرهقة تكتيكيا:

1- لا حل للدولتين، لكن توجد لدى الاسرائيلي دولة واحدة هي الدولة العبرية التوراتية من البحر الى النهر.

2- فلسفة الارض مقابل السلام ذهبت الى غير رجعة لان العقلية التي تحكم اسرائيل الان تؤمن ان لا داعي لمقايضة الارض مقابل السلام، ما دامت اف 35، ودبابة الميركافا، وحاملات الطائرات، وقوات النخبة موجودة وتحت الطلب.

3- الحقيقة المؤلمة الاخيرة ان حل الدولتين ممكن لكن شرط ان لا تكون الدولة الثانية اسرائيل بل مصر او الاردن.

في اختصار فاتورة بقاء الدولة اليهودية وفاتورة التطهير العرقي وفاتورة التهجير القسري لن تدفعها اسرائيل بل سيدفعها العالم العربي من اراضيه ومن تمويله.

ما زال سؤال مستقبل بايدن داخل حزبه والتوازن داخل مجلس الشيوخ والنواب مفتوحا، خاصة عقب استطلاعات الرأي الاخيرة المقلقة حول الانخفاض غير المسبوق لشعبية الرئيس الاميركي وعدم الرضا عن سياساته. وكل شيء يمس القضية الفلسطينية وتداعيات الامن القومي المرتبط بها يطرح تساؤلات اكثر من تقديمه اجابات ويطرح عدم تيقن اكثر من يقين مريح، ويطرح فراغات سياسية مخيفة اكثر من مشروعات تسويات مريحة واضحة. وبالتالي، فان:

- الخطر في المنطقة لم يبدأ بعد بل ان الاسوأ آت وبقوة، والسبب هو انه لا اتفاق محليا او اقليميا او اي رعاية دولية للحلول.

- المنطقة في حاجة ملحة الى يالطا جديدة للاتفاق على بوصلة واضحة لخارطة طريق.

- المناخ الحالي والمقبل الى حين وضوح قواعد اللعبة الجديدة وتثبت اللاعبين الجدد سوف يؤدي الى هزات امنية وسياسية كبرى وفوضى غير مسبوقة، وعبث جديد بالامن القومي العربي.